" قد أكمل "

" قد أكمل " (يوحنا ١٩:٣٠) ------- " قد تم " (رؤيا ٢١ :6)

Clarence Edward Noble McCartney (September 18, 1879 – February 19, 1957)

هاتان الكلمتان " قد أكمل " " قد تم " نطق به بهما المسيح و سمعها يوحنا، الأولى عندما كان واقفا عند الصليب في ظلمة الساعة التاسعة . والثانية عندما كان منفي في جزيرة بطمس ورأى في الرؤيا أنه واقف أمام العرش وسمع المسيح يقول : " قد تم ". الكلمة الأولى تعلن أن أساس هيكل البشرية المفتداة قد وضع . والثانية تعلن أن هذا البناء العجيب قد تم . و بين هذين النداءين يمتد تاريخ الكنيسة عبر العصور والأجيال.

" قد أكمل " ، هذا هو أعظم إعلان للإنسان، لكنه لم يكن يبدو كذلك عندما صدر من إنسان ، متروك ، مخذول ، محتقر ، مكلل بإكليل من الشوك ، مجروح ، مصلوب . ومن يهتم بما أكمل ؟ بل من يهتم بهذه الكلمة الأخيرة ؟ أجل إن العالم لن ينساها أبداً . السماء والأرض والجحيم جميعها قد سَمِعتْها . وها هي اليوم يتردد صداها في الكنائس وفي آخر العصور سنسمعها: تتردد لا من الصليب بل من العرش " قد تم." آلام المسيح ماذا اكمل ؟ ما هو المعنى في تلك الصرخة الغريبة التي شقت السكون والظلمة حول الصليب حيث مات المسيح ؟ إنها تعني أول الأمر أن آلام المسيح انتهت .كان من عوامل هذه الآلام آلامه الجسمانية لأن الله هيأ له جسدا و بهذا الجسد تألم . كم هو عميق و عميق جدا سر الألم هذا السر يقابلنا دائما أبدا فيملأنا حيرة وارتباكا . ولكني متأكد أننا سنجد الألم في النهاية قد أثمر ثمراً عجيبا في حياتنا. إننا نعرف أن الأشياء العظيمة التي ينجزها الإنسان للإنسان لا تأتي إلا بالألم . والصليب يرينا أن أعظم عمل عمله الله للإنسان هو بواسطة الأم. وكان الصليب أداة للتعذيب والموت اخترعه أناس قساة ، الغرض منه ليس الموت وحسب بل أن يصحبه أعظم نوع من الألم. ومن هذا الوجه فإن الصليب لم يعجز عن أداء الغرض الذي وجد من أجله فكل ما يتضمنه المزمور الثاني والعشرون الذي تممه المسيح على الصليب كان وصفا رائعا لآلام الصلب - العطش الرهيب ، والعظام المتألمة ، والقلب الذائب كالشمع ، والقوة اليابسة كشقفة ، واللسان اللاصق بالحنك ، وغيرها - كلها تمت في صليب المسيح . وهكذا تمت كل آلام السيد وسوف لا يتألم فيما بعد لأنه شرب كأس الألم حتى الثمالة. كما أن آلامه فيما يختص باتضاعه قد كملت أيضاً ، وفي

تجسده باحثاً عن رجوع الإنسان إلى الله. لقد اتضع صائرا في شبه الناس وأطاع حتى الموت موت الصليب ، ذلك الموت المشين ، المهين ، المحتقر ، الأليم . ولا أحد غير المسيح يستطيع أن يوضح لنا المعنى في اتخاذه صورة الإنسان الساقط ويعيش وسط الخطاة ويكلمهم ويأكل معهم. ولم يسكن المسيح مع الخطاة نظيرنا وحسب بل لقد صار خطية من أجلنا لنصير نحن بر الله فيه . وهذا وحده يفسر لنا عمق آلامه في بستان جثسيماني كان شبح الموت على صليب العار يلوح له إذ ذاك عندما كان يصلي : " لتعبر عنى هذه الكأس " ولكن وقوفه في مكان الخاطيء لينوب عنه في عمل الكفارة هو ما كان يحزن ويؤلم ، ومع هذا فإنه قبل أن يقف هذا الموقف طواعية ، وكل هذا قد اكمله على أتم وجه . وقام من الموت بمجد الأب ، وصعد إلى السماوات وجلس على يمين العظمة بالكرامة.

وآلام المسيح من وجهة وحشته ووحدته قد انتهت , وهو أحب صديق و أوفى رفيق لنا. ومع هذا فكان مهجوراً منفرداً وحيداً في عالم الظلمة . وبالرغم من حديثه باستمرار مع التلاميذ عن المهمة السامية التي جاء من أجلها إلى عالمنا هذا فإنهم لم يكونوا يفهمون ما كان يقصده. حتى يوحنا الحبيب الذي كان يتكيء على صدره لم يستطع فهم هذا القصد. ولهذا السبب كسر الله ختوم عالم الأموات واستدعى موسى وإيليا ليقفا مع المسيح فوق جبل التجلى و يتكلما معه عن خروجه المزمع أن يتم في أورشليم . وأعداؤه كانوا يبغضونه بلا سبب بالرغم من حبه لهم وعطفه عليهم حتى التلاميذ تر كوه وحده هدفا للآلام والصليب . وتم فيه ما أنبأ به إشعياء قديما " دست المعصرة وحدي. "

لكن وحدة المسيح قد انتهت وكل شيء " قد أكمل " والآن هو في صحبة الآب السماوي في المجد بل في صحبة الملائكة ورؤساء الملائكة ونفوس المفديين و أرواح الأبرار المكملين بدم فداته . وانتهت أوجاع اتضاعه ، وكل ما قاساه من ألم.. هلم يا يوسف الرامي وهلم يا نيقوديموس ولو أنكما أتيتما متأخرين في ولائكما له واحملا جسده من على الصليب ولفاه في الكتان وضعاه في القبر الجديد المنحوت من الصخر . وهيا أيتها النساء اللواتى كن تتبعنه ، تعالين وادهن جسده بالحنوط والأطياب. وأنت أيتها العذراء الطهور التي جاز في قلبك سيف، تعالى فها قد انتهت آلام ابنك الحبيب! و تعالي يا مريم المجدلية خذى سهرة العيد عند قبره : " قد أكمل."

كفارة المسيح قد أكملت

كل هذه الآلام التي تحملها المسيح كما أوضحنا سابقا انتهت عندما صرخ في الساعة التاسعة وقال : " قد أكمل " . لكن ما معنى هذه الآلام؟ ففي الحقيقة إن الآلام قد حلت بواحد وهذا ليس كافيا أن يوضح لنا لماذا كانت صرخته النهائية هي " قد أكمل " لكن لماذا تألم حتى إن هذه الصرخة ظلت تتردد في عالمنا إلى يومنا هذا وستظل تردد حول عرش الله في اليوم الأخير ؟ ولماذا لاقي بذاك أن يتحمل كل هذا ؟ ذلك هو الفداء العظيم الذي أكمله الرب يسوع المسيح. وهو الوحيد الذي أتي إلى العالم لكي يموت على الصليب . وهذا هو الثمن للفداء والغفران. وكان هذا العمل في مقاصد الله قبل تأسيس العالم لأن المسيح هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم . وهذا العمل وصل إلى قمة الكمال على الصليب . فوعد الله الذي أعطاه للإنسان عندما سقط ، والعهد الذي صار لنوح وإبراهيم ، ودعوة رجل من عشيرة ثم أمة ، والخروج من مصر ، ولوحا الشهادة ، والخيمة ثم الهيكل بمذابحه والذبائح التي كانت تقدم ، والعجائب والأحكام والرموز ، وأنوار النبوات التي تلألأت عبر القرون والأجيال ، ومناداة يوحنا المعمدان ، و ترنيمة الملائكة ليلة الميلاد ودخوله الهيكل ، وسنو الناصرة ومعموديته في نهر الأردن بواسطة يوحنا و نزول الروح القدس بهيئة جسمية ، والتجربة في البرية ، والأمثال والمعجزات التي صنعها ، وصلواته ، ودموعه ، و تنهداته ، و العشاء الأخير ، وتسليم يهوذا إياه ، و إنكار بطرس له ، ومحاكمته أمام بيلاطس - كل هذه إلى آخر مسمار دق في جسده والحربة التي طعنته في جنبه - كل هذه كانت جزءا من العمل العظيم عمل الفداء والمصالحة لأن الله كان صالحاً العالم لنفسه بالمسيح ، وها قد تم كل هذا العمل المجيد من أجلنا. ولهذا صرخ المسيح قائلا " قد أكمل ".

وها إننا نرى الناس تحولوا عما عمله المسيح على الصليب من أجل الإنسان إلى ما يستطيع أن يعمل الإنسان لنفسه . وكل مكان حدث فيه هذا التحول حدث معه انحراف عن الإيمان الفعال ، وانحدار في الغيرة المقدسة لملكوت الله ، وابتعاد عن الصليب الذي هو الينبوع الحقيقي للآداب الصحيحة.

صحيح أن المثل العالية طيبة ، لكن في أعماق النفس عندما تصادفنا أمواج الحياة الصاخبة ، نحتاج آنذاك إلى ما هو أبعد من ذلك . ولا يوجد شيء نحتاج إليه في أوقات كهذه إلا عمل المسيح الكامل من أجلنا. لأن في الصليب قوة لكل لحظات الحياة بل دفاعا منيعا ضد كل الأخطار . ففي وسط الظلمة التي تكتنف العالم ليس من رجاء إلا في صليب المسيح وعمل الكفارة الذي تممه حين صرخ " قد أكمل ".

انكسار الشيطان

إن الحرب ضد الشر قد انتهت هناك . يوجد كثيرون في أيامنا ينظرون إلى المستقبل نظرة تشاؤم . ولا عجب في ذلك لأنهم يضعون جل اهتمامهم على النظرية التي تقول إن العالم في تقدم مستمر ، ولما نظروا عكس ما كانوا يتوقعون أفاقوا للحقيقة . لأنه لو كان ما نراه الآن هو كل ما نعتمد عليه فإن كل ما نتوقع في المستقبل هو انحراف و انحلال وتأخر لا تقدم . ولذلك ترى عددا كثيرا من الناس يقولون إن البشرية تخبط خبطاً عشوائياً ولا هدف لها كما أنه لا يوجد عصر ذهبي كما يزعمون وأن الوحش هو الرفيق المستديم لبني آدم. لكن المؤمن له نظرة أخرى تختلف عن ذلك . وكنوز كلمة الله الموحي بها مذخرة بوصف اليوم السعيد المجيد الآتي ، اليوم المجيد في بهائه وإشراقه والذي أمامه أبهى يوم طلعت فيه الشمس على هذا العالم يبدو ظلاماً . وأجمل ما في الأرض سناء وبهاء بعد قتام الظلام. وهذا الرجاء المبارك الذي يتمسك به المؤمنون مستقر على انتصار المسيح فوق الصليب لما قال : " قد اكمل ".

فالحرب ضد الشيطان وملكة الظلمة انتهت . ونسل المرأة في شخص المسيح سحق رأس الحية. لكن رب سائل يقول :كيف يكون هذا؟ وها نحن نرى أمام عيوننا عساكر الشر تملأ الدنيا. و أينماجلنا بأبصارنا فإننا نرى يدالتخريب والهدم والخداع التي يصول الشيطان بها ويجول . ويسألوننا على أي أساس تبنون رجاء السعادة للبشرية المفدية ؟ والجواب هو إننا نبني رجاءنا على عمل المسيح الكامل على الصليب. لأن المسيح لما أسلم الروح وهذا النداء على شفتيه كان العالم يظن أن هذا هزيمة لا انصاراً. لكنه كان غلبة باهرة بل غلبة من نوع ليس له مثيل، غلبة كسبت الموت.

لما أخرج الفلسطينيون شمشون من السجن إلى قصرهم وهيكلهم ليجعلوا منه ألعوبة وسخرية ، بل يسخرون من إلهه ، طلب من الغلام الماسك بيده: دعني ألمس الأعمدة التي البيت قائم عليها لأستند . وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائماً عليهما و استند عليها الواحدبيمينه والآخر بيساره . وانحني بقوة فسقط البيت على كل الذين فيه فكان الموتي الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته.

هذا مثل تقريبي والقياس مع الفارق فيما عمل المسيح إذ استند بيمناه على عامود الخطية الأسود ، و بيسراه على عامود الموت الرهيب ومال عليها بكل قوته حتى الموت فسقطت مملكة إبليس . ورب قائل آخر يقول : لكني لا أرى علامات هذا السقوط. لكن أقول لك مهلا يا أخي، وتذكر صرخته الثانية القائلة " قد تم " التي سمعها يوحنا الذي هو بعينه سمع الصرخة الأولى على الصليب " قد أكمل " .. فالحرب الطاحنة التي دارت رحاها بين الخير والشر قد أتت إلى نهايتها . فكل آلة للحرب والقتال قد سقطت ، الحرب والخصام اللذان ولدتهما الخطية قد تلاشيا. وثالوث الضلال : الوحش والنبي الكذاب والتنين طرحوا في بحيرة النار . والسماء الجديدة والأرض الجديدة حلتا مكان الأوليين وأورشليم الجديدة مدينة الله نزلت من السماء كعروس مزينة لرجلها. ثم سمع يوحنا الجالس على العرش يقول: " قد تم ". هو الألف والياء ذاته الذي مات على الصليب وقال : " قد أكمل " . وها قد تم كل شيء قد مات من أجله . وصرخة الجلجثة من المسيح المخلص ردد صداها الملك الجالس على العرش حينما صارت كل ممالك العالم للرب ولمسيحه ولكن سر الأسرار هو التنازل الإلهي العجيب ! يا لها من محبة لا تقاس ذلك العمل

العظيم الذي تطلب مقاصد الله في كل الأجيال وآلام المسيح على الصليب ، كل ذلك من أجلك ومن أجلى . إن أعظم ساعة هي عندما تسمع النفس الصرختين " قد أكمل " و " قد تم ". فترد بالطاعة والتسليم والإيمان قائلة نعم : " قد تم. "

منقولة من كتاب أعظم الآيات مع التعديل والتصحيح

الرب يستخدم هذه العظة لتكون سبب بركة

صفوت زني سمعان